الأسرة كوحدة اجتماعية

لحضرة صاحب السعادة عبد القادر اجمال باشا

المستشار الاقتصادى لبنك المنيف الزراعى

تبنى الأسرة على قاعدتين أساسيتين اعترف بهما كل تشريع فى العالم أجمع وإن اختلفت البلدان فى تفسيرهما . فالقاعدة الأولى هى ارتباط الرجل والمرأة بالزواج . والقاعدة الثانية هى سلطة الوالدين على الأبناء ولا سيما سلطة الأب .

وهناك أنواع شتى من الأسر أهمها أربعة :

فالنوع الأول هو الأسرة التى تقوم على أساس تحتيم الزواج بين أفراد القبيلة الواحدة ولكنها تحرم فى الوقت نفسه الزواج بين أفراد العائلة نفسها كما هو واقع فعلا الآن بين قبائل أستراليا الحاليين .

والنوع الثانى هو الأسرة التى تقوم على أساس زواج المرأة بعدة رجال فى وقت واحد كما نراه فى بلاد التبت بآسيا .

والنوع الثالث يقوم على أساس تعدد الزوجات للرجل الواحد كما نراه فى بعض البلاد الشرقية وفى جماعة أطورمونس فى الولايات المتحدة الأمريكية .

والنوع الأخير هو الأسرة التى تقوم على ارتباط الزوج بزوجة واحدة .

ويختلف مركز المرأة عند الأمم باختلاف وجهات نظر هاته الأمم إلى الزواج وماهيته .

واكتفاء الرجل بزوجة واحدة هو أشرف أنواع الزواج وأسلمها عاقبة فى قيام الأسرة على أسس قويمة محترمة .

يخبرنا تاريخ مصر القديم فى عهد الفراعنة باحتفاظ الأسرة المصرية بكيانها ووحدتها أكثر منه فى أية دولة أخرى . كما يخبرنا بأن السلطة فى الأسرة وإن كانت للأب وتنتقل بعد وفاته إلى أكبر أبنائه إلا أن الزوجة الشرعية كان لها فى الوقت نفسه مركز ممتازا ونفوذا كبيرا توارثته منذ سريان النظام الذى يعبرون عنه بال Matriarcalo أى نظام انتقال الميراث بعد وفاة الأب إلى أكبر بناته وليس إلى أكبر أبنائه . هذا النظام جعل للزوجة مركزا يضارع مركز الزوج ، كما كانت حياة الأسرة المصرية فى ذلك العهد قائمة أيضا على تبادل المحبة والاحترام بين أفرادها ، كما تشهد بذلك النقوش والكتابات الهيروغليفية التى نراها على الآثار المصرية القديمة ، فكثيرا وكثيرا جدا نرى الجملة الآتية منقوشة على

أحجار مقابرهم وهي : "لقد كنت محببا لدى أبي — مكرما لدى أمي — معززا لدى إخوتي" — كما نرى صورة العائلة منقوشة على الجدر يتوسطها الرجل تحيط به زوجه وأولاده فى محبة وعطف مما يدلنا على ما كان للأسرة من شأن فى ذلك الوقت . أما إبان قيام الدولة الروحانية القديمة فقد جاء تشريع الأمبراطور جوستنيان واعترف للزوجة بحق الحلول محل زوجها بعد وفاته فى أكثر حقوقه بقطع النظر عن نظام الميراث الذى كان متبعا وقتئذ والذى بمقتضاه كان الميراث يوزع بين الأولاد والزوجة بنسبة معينة .

وجاء الدين الإسلامى الحنيف فرفع عن المرأة ظلما كبيرا كانت تئن تحت ثقله ، واعترف لها باستقلالها المادى عن زوجها ولكنه احتفظ بقوامة الأسرة للرجل .

أما فى القرن التاسع عشر وأواخر القرن العشرين فكان التشريع الغربى الذى ينظم الأسرة يقوم على أساس عدم الاعتراف بالطلاق وعلى النص على سلطة الأب على الأسرة .

وفى وقتنا هذا نرى ميلا كبيرا لدى المشرع للتدخل فى شؤون الأسرة وتسهيل الطلاق بين الزوجين إلى مدى بعيد والحد من سلطة الأب مستعيضا عنها بسلطة الدولة وذلك تحت ضغط المبادئ الاشتراكية الحديثة التى تفشت فى العالم أجمع ، وتزداد يوما بعد يوم ، وهذه الثورة الحديثة فى المبادئ لم يمض عليها الوقت الكافى بعد للحكم لها أو عليها ، ولكننا فى مصر لم نزل بعيدين عنها نوعا ما ، ولم يجار المشرع المصرى زميله الغربى فيما نزع إليه هذا الأخير بل نراه يسير بخطى وئيدة فى هذا المضمار ، متباعدا ما أمكن عن المسائل التى لها مساس بالدين وأصوله وأحكامه وحسنا يفعل .

* * *

تتكون الأسرة من الوالد والأم والأولاد وبعض من هم فى حكمهم وعلى كل منهم واجبات وله حقوق ، ولعلى لا أكون مبالغا إذا قلت إن الأم هى ركن هام فيها ، فعليها تقع أعظم التبعات ، وعليها يجب أن يكون جل الاعتماد فى إعداد نشء صالح قادر على تحمل المسئوليات ، ومتى كان فى استطاعة الأم إعداد أولادها منذ الصغر للكفاح ، والنجاح والحياة . وإدارة دفة بيتها بعقل وإحكام ، استطاعت أن تنتج لنا وحدة متينة مهيئة لاستقبال الحياة بثبات وإعتداد بالنفس وثقة وأمل . فالأم هى التى تحفز الهمم وتبعث على الرجاء وتوسع أفق الحياة أمام أولادها . وقد سمعنا جميعا عن تلك المرأة العربية التى بعثت أولادها الأربعة إلى ساحات القتال بعد أن زودتهم بروح الثقة والإيمان بالله سبحانه وتعالى من أجل الواجب والوطن . فلما جاءها الخبر بأنهم فقدوا جميعا فى ساحة القتال قالت : " الحمد لله

الذى شرفنى بقتلهم وأرجو الله أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته " فضربت بذلك مثلا ساميا للمرأة العربية ، ولله در من قال :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

فعلى الأم يقع أكبر العبء فى تكوين الوحدة الاجتماعية التى هى أساس المجتمع ، ومتى كانت الوحدة سليمة كان المجموع سليما معافى ، أما إذا دبت العلة إليها تسرب الداء إلى المجموع . فعظم أمره واستفحل وعز من أحله الدواء .

كذلك على الأب واجبات كبرى نحو أسرته فهو مسؤول أمام الله والناس عن سلامة عائلته وتوجيهها نحو الكمال ما استطاع لذلك سبيلا . فإذا أردنا إصلاح الجماعة فيجب علينا أن نبدأ بإصلاح حال الأسرة ، ولا تصلح الأسرة إلا بإصلاح الوالدين كما رأينا . ويقول علماء التربية وعلم النفس إن المكان الحقيق للتربية هو " البيت " فيجب العناية الكبرى بكيفية استعمال سلطة الوالدين على الأبناء ، فى السنين الأولى من حياتهم على الأخص ، فهى من أهم العوامل فى التربية الخلقية والاجتماعية وتكوين شخصية أفرادها ، بل إن البعض من هؤلاء العلماء يذهب إلى القول بأن الطفل يتكون بشكل نهائى فى هذه السنين الأولى . ومن هنا نعرف قيمة التربية المنزلية وضرورة حسن استعمال سلطة الوالدين .

كل هذا يظهر لنا بصورة جلية واضحة أهمية الأسرة كوحدة اجتماعية وضرورة العمل على تقوية هذه الوحدة بشتى الوسائل ، وضرورة العمل على تقوية روح التضامن بين أفرادها .

ولا بد لى من أن أنوه عن الفوضى فى مصر فى ألقاب الأسرة الواحدة ، فبعد أن كان لكل أسرة عندنا اسم يميزها عن غيرها أصبحنا و إذا بالأخوة والأشقاء كل منهم يحمل لقبا يختلف كل الاختلاف عن لقب أخيه و بيته . فترى الولد الأول فى الأسرة يدعى محمد حشمت مثلا والثانى أحمد ذو الفقار والثالث سمير عصمت والبنت حورية بهجت ، مما لاضابط له بينما اسم ولقب الأب هو عبد الرحمن الجرجاوى . فلم كل هذه الفوضى ؟ ولم لا نقتدى بتركيا حيث سنت قانونا يحتم على كل أسرة اتخاذ لقب يتسمى به كل فرد من أفرادها ، و يميزها عن غيرها ؟ فهذا القانون الذى سنته تركيا فيه بعض الحفظ لكيان العائلة يشد من أواصرها ونحن أحوج ما نكون إلى قانون مثله .

كما أريد أن أوجه نظر أولى الأمر فينا إلى ضرورة إحكام نظام المجالس الحسبية ونظار الوقف حتى يكون منه سياج منيع للأسرة عند حلول كارثة وفاة الأب وأولاده قصر وحتى يكون منه نظام يدفع عن الأسرة جشع الطامعين فى مال القصر . حفظا لكيان العائلة

و يد حدا و أخذ بالنظام الفرنسي بعد تعديله بيتفق مع عادات القومية " أي نضم مجلس نيابة يحل محل الفوضى " وهي أرى فيه تحقيقا من ويلات نظام الأوصياء في الكثير من الأحيان .

هل أحدر الأسر بعناية ، وأحوجها إلى تضافر الجهود لإصلاح شأنها ، هي أسرة الفلاح المصري ، فهي أسرة لم تزل على الفطرة ، ولم تتسرب إليها أكثر عيوب أسر أهل المدن ولا يذهب أفرادها إلى دور السينما جماعات أو فرادى ولا يرتاد رجالها المقهى ساعات طوالا ولا تتبرج نساؤها ، وما كان ذلك من زهد في هذه الملاهي والملذات ، بل سوء حالتها المالية والصحية والروحية. هو الذي أجبرها على الاستسلام للقضاء ، والقناعة بالقدر اليسير — وكل مناقد تلمس عن قرب أو بعد بؤس هذه العائلات ، وما تعانيه من قسوة الحياة والفقر المتناهي مما تنفطر له القلوب حزنا وأسى ، فمسكنها قذر غير صحي ، وغذاؤها تعافه النفس ، ومشربها من ماء آسن كريه ، وملبسها قد بلغ الحد الأدنى من البساطة والحد الأقصى من القذارة ، لا تعرف من الحياة إلا التعب المتواصل المضني ، لقاء بضع دريهمات تحصل عليها ، لا تسد رمقها ، وحياة تشبه حياة أدنى الحيوانات ، تتنابها أمراض شتى — فالبلهارسيا والانكلستوما وأمراض العين متفشية بينها وسوء التغذية يكاد يودي بحياتها ، وترى هذه الأسرة مع الأسف الشديد ، تتناسل بكثرة مريعة ، مما يزيد في انحطاط مستوى معيشتها جيلا بعد جيل ، وهي أحوج ما تكون إلى دعاية قطنة منتظمة بينها لتفهم الضرر من كثرة النسل ، إذ لا سبيل إلى الوصول إلى هذا الغرض أي ضبط النسل ، بالتشريع لأننا نرى المشرع المصري يتباعد ما أمكن عن التدخل في مثل هذه الأمور حشية اعتراض رجال الدين ، ولا شك بل ولا اختلاف في أن النتيجة الحتمية المنطقية لكثرة النسل في أسرة الفلاح الذي يكون الغالبية العظمى لسكان البلاد ستكون توالي هبوط مستوى معيشتها إلى حد مريع ، ولا تنس أن الحياة الثقافية عند الفلاح تكاد تكون معدومة ، بل وأن كل ما يعرفه من أمور دينه إنما يتلقاه من مأذون القرية ، الذي قد يكون جاهلا ، متعصبا بجهالته هذه الأسرة هي أحق وأولى بعناية أولي الأمر منا ، إذ عليها تقوم المملكة المصرية ، ومنها يتكون السواد الأعظم من وحدتنا الاجتماعية ، وكلما بادرنا بالنهوض بها كان ذلك أرجى لإصلاح حياتنا القومية ، فالخطر من هذه الناحية يهدد مستقبل البلاد ويكانها .

وحسبنا أن نعرف أن الغالبية العظمى من رجال الفلاحين قد ثبت عدم صلاحيتهم لخدمة العسكرية ، نتيجة لما يعانون من سوء التغذية وعدم توافر الشروط الصحية ، في المسكن والملبس — وياحبذا لو عنيت رابطة الشباب بدراسة حال الفلاح وأسرته في أحد مؤتمراتها القادمة إن شاء الله ، فهذه العناية واجبة علينا ، وهي دين في عنقنا نؤديه إن عاجلا

و إن آجلا ، فلا بد والحالة هذه من العمل سريعا لانتشال هـذه الأسرة من تلك الوهدة العميقة بتخصيص جزء وفير من مال الدولة سنويا و بلا انقطاع لإصلاح شؤون الفلاح بدلا من إنفاقها فى الكماليات : تنشئ له المستشفيات بعدد واف وتبنى له البيت الصحى الذى يتفق ومطالبه وتوصل له مياه الشرب النقية إليه وترفع من أجره اليومى وتسهل له سبل اقتناء شىء من الثروة يصلح به حاله وتغذيه بقدر متواضع من الثقافة ، فالموقف جد خطير والمستقبل من هذه الناحية مظلم مكفهر وفى يد القدر .

أريد الآن أن أرفع صوتى ليصل إلى كل محب مخلص لمصر — ليصل إلى آذان أولى الأمر منا — ليصل إليكم شباب البلاد ، عليكم عمادها ، ليخبرهم بأن العناية بأمر الفلاح وأسرته قد تأخرت إلى أكثر مما يجب وأن خطر انهيار كيان الأمة من جراء ذلك أصبح قاب قوسين أو أدنى وأن كل تهاون فى المبادرة بعلاج هذه الحالة يكون إجراما فى حق الوطن وأيما إجرام .

فلتتق الله جميعا فى أمر هذا البائس المسكين ولترحم الفلاح يرحمنا الله .

عبد القادر الجمال

" إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ " .

(قرآن كريم)